

المبحث السادس عشر: السياسة الحكيمة

إذا سلك المسلم مسلك السياسة الحكيمة في دعوته إلى الله تعالى، فسيكون لذلك عظيم الأثر في نجاح دعوته، والوصول إلى الغاية المطلوبة بإذن الله تعالى.

والنبي ﷺ هو أسوتنا وقدوتنا، وإمام الدعاة إلى الله، وقد سلك هذا المسلك، فنفخ الله به العباد، وأنقذهم به من الشرك إلى التوحيد، وكان لسياسته الحكيمة عظيم النفع والأثر في نجاح دعوته، وإنشاء دولته، وقوة سلطانه، ورفعة مقامه، ولم يُعرَف في تاريخ السياسات البشرية أن رجلاً من الساسة المصلحين في أيّ أمةٍ من الأمم كان له مثل هذا الأثر العظيم، ومَن من المصلحين المبرزين - سواء كان قائداً مُحَنِّكاً، أو مربيّاً حكيماً - اجتمع لديه من رجاحة العقل، وأصالة الرأي، وقوة العزم، وصدق الفراسة، ما اجتمع في رسول الله ﷺ؟ ولقد برهن على وجود ذلك فيه: صحة رأيه، وصواب تدبيره، وحسن تأليفه، ومكارم أخلاقه، ﷺ^(١).

فإذا قام الداعية بسلوك هذا المسلك بإخلاص، وصدق، وعزيمة، اكتسب من الحكمة في الدعوة إلى الله مكتسباً عظيماً.

وطرق السياسة الحكيمة في الدعوة إلى الله ﷻ كثيرة، منها الطرق الآتية:

الطريق الأول: تحري أوقات الفراغ، والنشاط، والحاجة عند المدعويين حتى لا يملؤوا عن الاستماع ويفوتهم من الإرشاد والتعليم

(١) انظر: هداية المرشدين، للشيخ علي محفوظ، ص ٢٤، و ٣١.

النافع، والنصائح الغالية الشيء الكثير، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه كان يتخوّل أصحابه بالموعظة كراهة السامة عليهم، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ يتخوّلنا بالموعظة في الأيام كراهة السامة علينا»^(١).

ولهذا طبّق الصحابة هذه السياسة، فقد كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يُذكّر الناس في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، لوددتُ أنك ذكرتنا في كل يوم، قال: أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملككم، وإني أتخوّلكم بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتخوّلنا بها مخافة السامة علينا^(٢).

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «يسرّوا ولا تُعسّروا، وبشّروا ولا تُنفّروا»^(٣).

الطريق الثاني: ترك الأمر الذي لا ضرر فيه ولا إثم، انقاء للفتنة، فقد يجد الداعية قوماً استقر مجتمعهم وعاداتهم على أشياء لا تخالف الشريعة؛ ولكن فعل غيرها أفضل، فإذا علم الداعية أنه سيحصل فتنة إذا دعا إلى ترك هذا الأمر أو فعله فلا حرج ألاّ يدعو، فقد ترك النبي ﷺ هدم الكعبة وبناءها على قواعد إبراهيم رضي الله عنه اجتناباً لفتنة قوم كانوا حديثي عهدٍ بجاهلية، فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها: «يا عائشة، لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لأمرت

(١) البخاري، كتاب العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، برقم ٩٥، وباب من جعل لأهل العلم أياماً معلومة، برقم ١١٨.

(٢) البخاري، كتاب العلم، باب من جعل لأهل العلم أياماً معلومة، برقم ٧٠.

(٣) البخاري، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة، برقم ٦٩، ومسلم، كتاب الجهاد، باب الأمر بالتيسير وترك التنفير، برقم ١٧٣٤.

بالبیت فهدم، فأدخلت فيه ما أخرج منه، وأزقته بالأرض، وجعلت له بايين: باباً شرقياً، وباباً غربياً، فبلغت به أساس إبراهيم^(١).

وفي رواية: «إن قومك قصرت بهم النفقة»، قلت: فما شأن بابه مرتفعاً؟ قال: «فعل ذلك قومك ليُدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا، ولولا أن قومك حديث عهدهم بالجاهلية فأخاف أن تنكر قلوبهم أن أَدْخَلَ الجَدْرَ في البيت، وأن أُلصِقَ بابه بالأرض»^(٢).

وهذا يدل الداعية على أن المصالح إذا تعارضت، أو تعارضت مصلحة ومفسدة، وتعذر الجمع بين فعل المصلحة وترك المفسدة بُدئ بالأهم؛ لأن النبي ﷺ أخبر أن نقض الكعبة وردّها إلى ما كانت عليه من قواعد إبراهيم ﷺ مصلحة، ولكن تعارضه مفسدة أعظم منه، وهو خوف فتنة بعض من أسلم قريباً، وذلك لما كانوا يعتقدونه من فضل الكعبة، فيرون تغييرها عظيماً، فتركها ﷺ لدفع هذه المفسدة^(٣).

الطريق الثالث: تأليف القلوب بالمال أحياناً، فالداعية كالطبيب الذي يشخص المرض أولاً، ثم يعطي العلاج على حسب نوع المرض، فإذا علم الداعية أن المدعو لم يرسخ الإيمان في قلبه رسوخاً لا تزلزله الفتن، فله أن يعطيه من المال ما يستطيعه، للاحتفاظ بالبقاء على الهداية بالإسلام، وقد شرع الله للمؤلفة قلوبهم نصيباً من

(١) البخاري، كتاب الحج، باب فضل مكة وبنائها، برقم ١٥٨٤، ومسلم، في الحج، باب نقض الكعبة وبنائها، برقم ١٣٣٣.

(٢) البخاري، كتاب الحج، باب فضل مكة وبنائها، برقم ١٥٨٤، ومسلم، كتاب الحج، باب نقض الكعبة، برقم ١٣٣٢.

(٣) انظر: شرح النووي على مسلم، ٨٩/٩.

الزكاة، وقد كان رسول الله ﷺ يسلك هذا المسلك، فيؤثر حديثي العهد بالإسلام بجانب من المال، إذا ظهر له أن الإيمان لم يرسخ؛ ولذلك أشار ﷺ بقوله: «إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه خشية أن يُكَبَّ في النار على وجهه»^(١).

وقد كان يعطي النبي ﷺ أشرف قريش وغيرهم من المؤلفات قلوبهم، لتلافي أحقادهم؛ ولأن الهدايا تجمع القلوب، وتجعل القلوب متهيئة للنظر في صدق الدعوة، وصحة العقيدة، والاستفادة من الآيات البيّنات، والبراهين الواضحة^(٢).

وصدق النبي ﷺ حيث قال: «تهادوا تحابّوا»^(٣).

وللتأليف بالمال أمثلة كثيرة من هديه ﷺ^(٤).

الطريق الرابع: التأليف بالجاه من السياسة الحكيمة؛ ولهذا قال النبي ﷺ للأَنْصار حينما آثر عليهم غيرهم في العطاء: «أفلا ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعون إلى رحالكم برسول الله فوالله لما تنقلبون به خير ما ينقلبون به»، فقالوا: بلى يا رسول الله قد رضينا^(٥).

(١) البخاري بنحوه، كتاب الإيمان، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة، برقم ١٤٠٨، ومسلم في الإيمان، باب تأليف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه، برقم ٢٤٨٠.

(٢) انظر: هداية المرشدين، ص ٣٥.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، ١٦٩/٦، والبخاري في الأدب المفرد، ص ٢٠٨، برقم ٥٩٤، قال الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير، ٧٠/٣: «إسناده حسن»، وانظر: إرواء الغليل، برقم ١٦٠١.

(٤) انظر: صحيح مسلم، ١٨٠٣/٤-١٨٠٦، وانظر أيضاً: البخاري مع الفتح، ١٣٥/٣، ٢٥٠/٦، ٢٥٨/١١.

(٥) البخاري، كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفات قلوبهم، برقم ٢٤٨٣.

وفي رواية: «لو سلك الناس وادياً أو شعباً، وسلكت الأنصار وادياً أو شعباً لسلكت وادي الأنصار أو شعب الأنصار»^(١).

فإذا سلك الداعية هذه السياسة وُفق للصواب والحكمة - بإذن الله تعالى - .

الطريق الخامس: التآليف بالعمو في موضع الانتقام، والإحسان في مكان الإساءة، وباللين في موضع المؤاخذة، وبالصبر على الأذى، فكان يقابل الأذى بالصبر الجميل، ويقابل الحمق بالحلم والرفق، ويقابل العجلة والطيش بالأناة والتثبت.

وهذا أعظم ما يجذب المدعويين إلى الإسلام والاستقامة والثبات، وبمثل هذه المعاملة الحسنة جمع النبي ﷺ قلوب أصحابه حوله، ففتنونا في محبته والدفاع عنه، وعن دعوته بمؤازرته ومناصرتة.

وقد مدح الله رسوله ﷺ، وأمره بالعمو والصفح والاستغفار لمن تبعه من المؤمنين بقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾^(٢).

وقال ﷺ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾^(٣).

= ومسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم وتصبر من قوي إيمانه، برقم ٢٤٨٣.

(١) مسلم، في كتاب الزكاة، الباب السابق، برقم، ٢٤٨٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

الطريق السادس: عدم مواجهة الداعية أحداً بعينه عندما يريد أن يُؤدِّبه أو يزره مادام يجد في الموعظة العامة كفاية، وهذا من السياسة البالغة في منتهى الحكمة؛ ولهذا كان النبي ﷺ يسلك هذا الأسلوب الحكيم، ومن ذلك قوله ﷺ: «ما بال أحدكم يقوم مستقبل ربه، فيتنخَّع أمامه، أيحب أحدكم أن يُستقبل فيتنخَّع في وجهه، فإذا تنخَّع أحدكم فليتنخَّع عن يساره تحت قدمه، فإن لم يجد فليفعل هكذا»، ووصف القاسم فتفل في ثوبه، ثم مسح بعضه على بعض^(١).

وقد النبي ﷺ ناساً في بعض الصلوات، فقال: «والذي نفسي بيده لقد هممتُ أن أمر بحطِّبٍ فيحطِّب، ثم أمر بالصلاة فيؤذِّن لها، ثم أمر رجلاً يؤمُّ الناس، ثم أخالف إلى رجالٍ [يتخلفون عنها] فأحرق عليهم بيوتهم»^(٢).

وقال ﷺ: «ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة»، فاشتدَّ قوله في ذلك حتى قال: «لينتهنَّ عن ذلك أو لتُخطفنَّ أبصارهم»^(٣).

وصنع النبي ﷺ شيئاً فرخص فيه، فتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي ﷺ فخطب، فحمد الله، ثم قال: «ما بال أقوام يتنزهون عن شيءٍ

(١) مسلم، كتاب المساجد، ومواضع الصلاة، باب النهي عن البصاق في المسجد، برقم ٥٥٠.

(٢) البخاري، كتاب الأذان، باب وجوب صلاة الجماعة، برقم ٦١٨، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة، برقم ٦٥١، وما بين المعقوفين من رواية مسلم.

(٣) البخاري، كتاب الأذان، باب رفع البصر إلى السماء في الصلاة، برقم ٧١٧.

أصنعه، فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدُّهم له خشية»^(١).
وقال النبي ﷺ: «ما بال أقوام قالوا كذا وكذا، لكنني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(٢).
وبلغه شرط أهل بريرة رضي الله عنها أن الولاء لهم بعد بيعها، ثم خطب الناس فقال: «ما بال أناسٍ يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله، من اشترط شرطاً ليس في كتاب الله فليس له، وإن شرط مائة مرة، شرط الله أحقُّ وأوثق»^(٣).

وهذا يدلُّ الداعية على أن من الحكمة عدم مواجهة الناس بالعتاب ستراً عليهم، ورفقاً بهم، وتلطفاً.
والداعية يستطيع أن يُوجِّه العتاب عن طريق مخاطبة الجمهور إذا كان المدعوّ المقصود بينهم ومن جملتهم، وهذا من أحكم الأساليب^(٤).

الطريق السابع: إعطاء الوسائل صورة ما تصل إليه، كقوله ﷺ: «من دل على خير فله مثل أجر فاعله»^(٥).

فقد صور النبي ﷺ الدلالة على فعل الخير في صورة الفعل نفسه.

-
- (١) البخاري، كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب، برقم ٥٧٥٠، ومسلم، كتاب الفضائل، باب علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته، برقم ٢٣٥٦.
(٢) مسلم، في كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تآقت نفسه إليه، برقم ١٤٠١.
(٣) البخاري، كتاب المكاتب، باب ما يجوز من شروط المكاتب، برقم ٢٥٨٤، ومسلم، كتاب العتق، باب إنما الولاء لمن أعتق، برقم ١٥٠٤.
(٤) انظر: فتح الباري، ١٠/٥١٣.
(٥) مسلم، في كتاب الأمانة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله، برقم ١٨٩٣.

وكقوله ﷺ: «من جهَّز غازياً فقد غزا»^(١).

وقال ﷺ: «إن من الكبائر أن يلعن الرجل والديه»، قيل: يا رسول الله: وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «يسبُّ أبا الرجل فيسبُّ أباه، ويسبُّ أمه فيسبُّ أمه»^(٢).

وهذا أصل في سدِّ الذرائع، ويُؤخذ منه أن من آل فعله إلى محرِّمٍ يحرم عليه ذلك الفعل، وإن لم يقصد إلى ما يحرم^(٣)، كما قال تعالى: «وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ»^(٤).

فقد أعطى النبي ﷺ من يسبُّ أبا الغير وأمه صورة من يسب والديه؛ لأنه تسبَّب في سبِّهما.

الطريق الثامن: أن يجيب الداعية على السؤال الخاص بما يتناوله وغيره حتى يكون ما أجاب به قاعدة عامة للسائل وغيره، قال عمرو بن العاص: لما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي، قال: «مالك يا عمرو؟» قال: قلت: أردت أن أشرط، قال: «تشرط بماذا؟»، قلت: أن يُغفر لي، قال: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله...»^(٥).

(١) مسلم، في كتاب الإمارة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله، برقم ١٨٩٥.

(٢) البخاري، كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه، برقم ٥٩٧٣.

(٣) انظر: فتح الباري، ١٠/٤٠٤.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٠٨.

(٥) مسلم، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج، برقم ١٢١.

فأجاب ﷺ بما يفيد عدم المؤاخذة عن كل من اعتنق الإسلام، وعن كل من هاجر، وعن كل من حج حجاً مبروراً، وقد كان يكفيه في الجواب أن يقول: غُفر لك، أو نحوها^(١).

وقال ﷺ لمن سأله عن ماء البحر: «هو الطهور ماؤه، الحل ميته»^(٢).

فأجاب ﷺ السائل عن الحكم الذي سأل عنه، وزاده حكماً لم يسأل عنه، وهو حل مية البحر، فعندما عرف ﷺ اشتباه الأمر على السائل في ماء البحر أشفق أن يشتهبه عليه حكم ميته، وقد يُتلى بها راكب البحر، فعقب الجواب عن سؤاله ببيان حكم المية، وذلك من محاسن الفتوى أن يُجاء في الجواب بأكثر مما سُئل عنه تميماً للفائدة، وإفادة لعلم غير المسؤول عنه، ويتأكد عند ظهور الحاجة إلى حكم كما هنا؛ لأن من توقف في طهورية ماء البحر فهو عن العلم بحل ميته، مع تقدم تحريم المية أشد توقفاً^(٣).

الطريق التاسع: ضرب الأمثال، قال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنان يشد بعضه بعضاً، وشبك بين أصابعه»^(٤).

وقد مثل النبي ﷺ المؤمنين في تبادل الرحمة والمودة والعطف

(١) انظر: شرح النووي على مسلم، ١٣٨/٢، وانظر: هداية المرشدين، ص ٣٢.
(٢) أبو داود، في الطهارة، باب الوضوء بماء البحر، برقم ٨٣، والترمذي في الطهارة، باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور، برقم ٦٩، والنسائي في الطهارة، باب ماء البحر، برقم ٣٣١، وابن ماجه في الطهارة، باب الوضوء بماء البحر، برقم ٣٨٦، وصححه الألباني في صحيح النسائي، ١٤/١.

(٣) انظر: سبل السلام شرح بلوغ المرام، للشيخ محمد بن إسماعيل الصنعاني، ١٨/١.
(٤) البخاري، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، برقم ٢٤٤٦، ومسلم، في كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم، برقم ٢٥٨٥.

بالجسد في روابطه العضوية، إذا مرض عضو مرضت باقي الأعضاء، فقال: «مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(١).

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، برقم ٥٦٦٥، ومسلم في البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم، برقم ١٩٩٩.